مجلة المنهل ـ المجلد: 07، العدد: 02 (2021م) ـ ص ص 547 – 562
ISSN : 2437 – 1068 • EISSN 8392-2710

المدن المندرسة بالغرب الاسلامي " سجلماسة نموذجا "

The extinct cities in the Islamic West " Sijilmassa as a model"

إدريـــس أقبـــوش (*)

ثانوية سيدي المخفي التأهيلية بإفران

وزارة التربية الوطنية (المغرب)

akbouchidriss@gmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2021/06/07	2021/08/11	2021/11/13

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

إن دراسة تاريخ ظهور المدن الأولى بالغرب الإسلامي عملية جد صعبة ومعقدة، نظرا لمحدودية المعلومات التي أوردتها المصادرة المعاصرة، فضلا عن تضاربها واختلافها من حيث المؤسس وسنة التأسيس، وينطبق هذا الوضع، خصوصا على سجلماسة كما يمكن تعميمه على معظم المدن المغربية. فالمصادر التاريخية تختلف حول التاريخ الحقيقي الذي ظهرت فيه مدينة سجلماسة على مسرح الأحداث بالغرب الإسلامي. ولذلك يمكن القول إنه من الصعب إعطاء تاريخ مضبوط لهذا التأسيس، نظرا لانعدام معطيات مصدرية واضحة وأبحاث أثرية دقيقة.

اختفت مدينة سجلماسة، وكانت وراء هذا الاختفاء عدة عوامل ، فرغم تفاوت هذه العوامل، يظهر أن العامل البيئي– الايكولوجي كان أعنف وأقوى، فنضوب المياه التي كانت تشكل المصدر الرئيسي للحياة، إلى جانب هبوب الرياح الجنوبية الشرقية المعروفة بشدة حرارتها، وما تحمله من كثبان رملية، أدى إلى استحالة استمرار العيش بالمدينة. كما أن موقع الإقليم جعله عرضة للعديد من هجومات قبائل الرحل عبر التاريخ، إضافة إلى انحراف الطرق التجارية التقليدية، وخاصة بعد اكتشاف المحيط الأطلنتي مع الكشوفات الجغرافية التي انطلقت من أوربا.

الكلمات المفتاحية: المدن؛ الغرب الاسلامي؛ التاريخ؛ سجلماسة، قبائل الرحل؛ نضوب المياه؛ انحراف الطرق التجارية.

Abstract :

The study of the history of the emergence of the first cities in the Islamic West is a very difficult and complicated process, given the limited information provided by contemporary references, and the contrariety and differences they provide about the founder and year of foundation. This situation applies especially to Sijelmassa and can be applied to most

(*) المؤلف المراسل.

Moroccan cities. For the Historical sources differ on the real history in which the city of Sijelmassa appeared on the scene in the Islamic West. Therefore it is difficult to give an exact date of its foundation; due to the scarcity of data and accurate archaeological research.

The city of Sijelmassa disappeared, due to several factors, although these factors vary, it is clear that the ecological factor was more influencing, like depletion of water. Which, was the main source of life, as well as the pyrogenic winds of the south-east. Which, eventually Led to the impossibility of continuing to live in the city. Furthermore, the location of the region has made it vulnerable to many attacks by nomadic tribes throughout history, in addition to the deviation of traditional trade routes, especially after the discovery of the Atlantic Ocean with the European geographical descoveries.

Keywords: The cities; the Islamic West; History; Sijelmassa; Nomadic tribes; Water depletion; Deviation of trade routes.

1.مقدمة

تكمن أهمية سجلماسة في كونها محطة تجارية أساسية ربطت بين جهات مختلفة، بل وشكلت منفذا رئيسا من منافذ المغرب على الصحراء، إذ منها كانت تنطلق القوافل التجارية نحو مناطق جنوب الصحراء، ومنها تُوزع البضائع السودانية على جميع جهات المغرب. ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن مدينة سجلماسة لعبت دورا متميزا على مستوى العلاقات التجارية، وساهمت أيضا في تكوين الشخصية المغربية ثقافيا واجتماعيا. وبغض النظر عن الواقع المتدهور لهذه المعلمة التاريخية، فإنها تظل شاهدة على التاريخ العريق لموقع استراتيجي بالجنوب المغربي. ضمن هذا السياق تأتي هذه المحاولة للنبش في تاريخ هذه المدينة العريقة، والانكباب عليها وتفحصها.

إن الرصيد البيبليوغرافي الذي اعتمدنا عليه في صياغة موضوع البحث تطلب منهجية للعمل والاشتغال. ولما كان تبني منهج محدد يفترض توضيح العناصر المنهجية التي ينبغي مراعاتها للوصول إلى أهداف هذه الدراسة والمتمثلة في التدقيق أولا، والاقناع ثانيا، ولما كان تجسيد هذه العناصر في تحديد ملاحظة الوثائق وتحديد مصدرها، ثم تحليلها، وأخيرا التركيب الذي يسمح بالخروج بخلاصات واستنتاجات عامة، فإن المنهج الذي اعتمدناه في هذا البحث تمثل في المنهج الاستقرائي" المبني على البحث في أصول الحدث وبداياته وامتداداته وتأثيراته".

وانطلاقا من هذه الرؤية المنهجية، سنحاول من خلال هذه الدراسة النبش في تاريخ سجلماسة، والظروف التي ساعدت المدراريين على اختيار هذا الموقع، وصولا إلى عوامل اندراس سجلماسة، مع استعراض بعض الأبحاث الأركيولوجية وما قدمته من معطيات في هذا المجال.

2. الموقع والموضع:

تختلف المصادر في ضبط موقع سجلماسة وتحديده، غير أنها تجمع على انتمائها إلى واحة تافيلالت. ومما زاد الأمر تعقيدا هو أن سجلماسة اسم لمجال ظل طيلة الفترات التاريخية التي مر منها غير محدد بوضوح بل عرف حالات من التوسع والانكماش حسب المتغيرات السياسية. لذلك اختلف الكتاب القدامى في تقديم معلومات مضبوطة عن المدينة وبالتالي ضبط حدودها(تاوشيخت، 2008، 23). وفي هذا السياق تعددت الرؤى والتفسيرات، فهناك من يقول أن سجلماسة مدينة في جنوب المغرب، في طرف بلاد السودان، تقع بناحية درن وسط الرمال، يخترقها نهر كبير(الحموي، د.ت، 192). بينما يشير **ليون الإفريقي** إلى أن "**إقليم سجلماسة يمتد على طول واد زيز، ابتداء من الخنك من المضيق القريب من مدينة غارسلون ونزولا نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلا حتى تخوم صحراء ليبيا**"(الوزان، د.ت، 121). في حين يقول تاوشيخت لحسن إن سجلماسة شيدت وسط واحة غنية وفوق ربوة مرتفعة، يحيط بها نهران وفي ملتقى مسالك القوافل التجارية(تاوشيخت، 2008، 31).

أما فيما يتعلق بالإحداثيات الجغرافية، فقد حاول ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافي أن يضبط مجال سجلماسة من حيث خطوط الطول والعرض، إذ قال "**وفي شرقي درعة مدينة سجلماسة وهي قاعدة ولاية مشهورة، حيث الطول ثلاث عشرة درجة واثنان وعشرون دقيقة والعرض ستة وعشرون درجة وأربعة وعشرون دقيقة**"(ابن سعيد، 1970، 124). بينما تحددها دائرة المعارف الإسلامية على مسيرة نحو 200 ميل جنوبي الجنوب الشرقي لفاس على تخوم الصحراء، وعلى الشاطئ الأيسر لوادي زيز وعلى خط عرض 80 و34 درجة شمالا وخط طول 31، 7 درجة غربا(مجموعة من المؤلفين، د.ت، 298). أما حافظي علوي فيقول أن سجلماسة كانت في القرنين الأولين تحت حكم المدرارين تقع بين خطي عرض 31 و 20 درجة وكانت عبارة عن إمارة واسعة امتد نفوذها غربا حتى مناطق درعة(حافظي، 1997، 23).

بناء على ماسبق، يمكن القول إن سجلماسة تقع وسط واحة كبيرة جنوب الأطلس الكبير، في موقع مقابل لمدينة الريصاني في تافيلالت.

3. الأهمية الاستراتيجية.

تكمن أهمية الموقع الجغرافي لسجلماسة في امتدادها في إفريقيا، وتحكمها في إحدى الطرق التجارية الحيوية المارة عبر الصحراء، والتي تعتبر صلة وصل بين السودان وإفريقيا وأروبا، ولعل ذلك ما جعل

موقع سجلماسة ذا قيمة استراتيجية في مخططات جل الكيانات السياسية التي تعاقبت على حكمه. إن محاولة تلمس معالم أهمية أي موقع جغرافي تنطلق أساسا من تقييم يأخذ بعين الاعتبار مكانة موقع الدراسة ودوره وعلاقته بالمواقع الجغرافية الأخرى. وتجدر الإشارة إلى أن الموقع الجغرافي لمدينة سجلماسة وفر مؤهلات اقتصادية مهمة، وقد توقف العديد من الباحثين عند هذه المزايا، إذ يقول **الوزان** "**كانت مدينة سجلماسة متحضرة جدا، دورها جميلة، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان، وكان فيها مساجد جميلة، ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر، تأخذه ناعورات من واد زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة، وكان هواؤها طيبا**..."(الوزان، د.ت، 127). في حين أشار **محمود اسماعيل** إلى أن سجلماسة اشتهرت بوفرة كرومها وفاكهتها(محمود اسماعيل، 1976، 274)، كما عرفت المنطقة بالحنطة والشعير والقطن والكمون الكراوية وغيرها. وعرفت سجلماسة في عهد بني مدرار بصناعة الثياب، إلى جانب الصناعات الأخرى كصناعة السكر وتكرير الملح والأحذية(محمود اسماعيل، 1976، 276). وهذا ما جعلها تحظى باهتمام كبير من لدن العديد من الباحثين، ومنهم: **ابن الخطيب** الذي قال "**وهي أم البلدان المجاورة لحدود السودان، تقصدها القوافل، وتهدى إلى محرابها النوافل، والرفاهية بها فاشية...مدينة محمودة مشكورة، كانت ذات تقديم، ودار ملك قديم، وبلد تبر وأديم**..."(ابن الخطيب، 2002، 181). أما البكري فقد وصفها قائلا "**مدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرة**..."(البكري، 2003، 332).

لقد أثبت المجال الطبيعي لسجلماسة أنه مجال خصب، لهذا شكل محورا أساسيا في السياسات التوسعية لجميع الكيانات السياسية التي راهنت على توحيد الغرب الاسلامي.

4. التسمية (قراءة طبونيمية).

يعتبر مشكل تاريخ التسمية من أهم الصعاب التي تعترض الباحث، إذ من الضروري معرفة مدى قدم الظاهرة أو المعلمة التي يشير إليها الاسم، ومن التقنيات التي يجب الاعتماد عليها التحليل التاريخي للمنطقة من جهة واللغوي من جهة أخرى قصد تحديد ذلك. إذ إن بعض الأسماء المتداولة لم يعد لها مدلول في اللهجة المحلية، كما تعترضه صعوبة ضبط مواقع الأسماء بالدقة العلمية المطلوبة. ونظرا لتحجر الأسماء في صيغ قديمة واستمرارها عبر العصور بدون تغيير فإنها تشكل بالنسبة لمعرفة اللغات القديمة لمنطقة ما، وكذا معرفة تاريخ هذه المناطق عنصرا أمينا إذا استطعنا فك ألغازها.

في إطار حديثنا عن سجلماسة نجد كثيرا من المؤلفات تقدم تفسيرا لمفهوم اسم سجلماسة، وهي تفسيرات تتميز بالاختلاف والتضارب. فقد أشار **الحسن الوزان** إلى أن مؤسس هذه المدينة –حسب

بعض مؤلفينا– قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نوميديا بأسرها، ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة، فبنى المدينة وسماها سجلوم ميسي لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة، ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل نهاية فتوحاته، فحرف هذا الاسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة(الوزان، د.ت، 127). وهناك من ذهب في اتجاه آخر وقال إن اسم سجلماسة يتكون من شقين: كلمة سجيل ذات الأصل العربي وهي وليدة الفتوحات الإسلامية بشمال إفريقيا، ثم ماسة وهي اسم مدينة بمنطقة سوس(تاوشيخت، 2008، 39). أما **العربي مزين**، فقد قال إن اسم سجلماسة، صيغ في لغة معينة كانت متداولة في البلاد، إذ لا يعقل أن يسمى الإنسان بأسماء لا يعرف معناها، وليس لها مفاهيم دقيقة في العصور التي تنتمي إليها، وفي هذا السياق عمد إلى تفكيك حروف الاسم بحثا عن الجذر المكون للكلمة. واستنتج أن كلمة سجلماسة مكونة من كلمتين: كلمة س. ك وهي صيغة التعدي لكلمة أ. ك التي تعني الإشراف على، وكلمة إلماس وهي جمع ألمس ويعني الماء، فتكون كلمة سجلماسة هي سك الماء أي المحل الذي يجعلك تشرف على المياه، أو بعبارة أخرى المحل الذي يقيك من المياه(مزين، 1988، 10).

5. التأسيس.

إن دراسة تاريخ ظهور المدن الأولى بالغرب الإسلامي عملية جد صعبة ومعقدة، نظرا لمحدودية المعلومات التي أوردتها المصادرة المعاصرة، فضلا عن تضاربها واختلافها من حيث المؤسس وسنة التأسيس، وينطبق هذا الوضع، خصوصا على سجلماسة كما يمكن تعميمه على معظم المدن المغربية المندرسة. فالمصادر التاريخية تختلف حول التاريخ الحقيقي الذي ظهرت فيه مدينة سجلماسة على مسرح الأحداث بالغرب الإسلامي. ولذلك يمكن القول إنه من الصعب إعطاء تاريخ مضبوط لهذا التأسيس، نظرا لانعدام معطيات مصدرية واضحة وأبحاث أثرية دقيقة. ففي هذا المضمار نجد الوزان يعود بتأسيسها إلى عهد الرومان، ومرة أخرى إلى الإسكندر الكبير(الوزان، د.ت، 127)، أما ابن أبي محلي فيذكر أن المدينة أسست سنة 40 هـ من طرف العرب الفاتحين وأن بني مدرار قاموا فقط بتوسيعها واتخاذها عاصمة لدولتهم(السهلي، 1988، 15). وهناك من ذهب في اتجاه آخر وربطها بوقعة ربض وقال أن مدرار كان حدادا من ربضية الأندلس فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة، فبنى خيمة وسكنها، وسكن البربر حوله فكان ذلك أصل عمارتها ثم تمدنت(البكري، 2003، 334). أمام هذه الإشكاليات، يبقى المخرج الوحيد هو الاعتماد على التأريخ المتفق عليه من طرف أغلب المهتمين والذي جاء به **البكري**، وهو سنة 140 هـ(االبكري، 2003، 332)، ويضيف **ابن عذاري** سنة واحدة حيث يرى أنها سنة 141 هـ(السهلي، 1988، 15)، وعلى هذين التاريخين ترتكز دراسات كل الذين تناولوا الموضوع، سواء أكانوا مستشرقين أو مشارقة أو حتى بعض الدارسين المغاربة، ومنهم:

تاوشيخت لحسن "شيدت مدينة سجلماسة 140 هـ/ 757 م من طرف خوارج مكناسة الصفرية في قلب واحة خصبة"(تاوشيخت، 2008، 55).

المنصوري أحمد "مدينة سجلماسة شيدها بربر مكناسة سنة 758 م، وحكمها بنو مدرار (771 م-772 م)"(المنصوري، 2004، 67).

حافظي علوي حسن "شيدت مدينة سجلماسة في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي"(حافظي، 1997، 360).

محمود إسماعيل "الخوارج الصفرية سباقين إلى إنشاء دولتهم في سجلماسة سنة 140 هـ/ 757 م"(حافظي، 1976، 112).

البكري "بنيت مدينة سجلماسة سنة أربعين ومائة، وبعمارتها خلت مدينة ترغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا"(البكري، 2003، 332).

انطلاقا مما سبق، يمكن القول إن جل الدراسات تتفق على سنة 140 هـ كتاريخ فعلي لتأسيس المدينة، وبالرغم من التفسيرات السابقة **للوزان وابن أبي محلي**، فمدينة سجلماسة شيدت سنة 140 هـ من طرف الخوارج الصفرية (بني مدرار). وتجدر الإشارة إلى أن **الوزان وابن أبي محلي** ربما قد يشيران إلى مدينة كانت قبل سجلماسة وهي زيز، وهذه الأخيرة مازالت الأبحاث الأثرية لم تكشف عنها لحد الآن، رغم ذكرها من طرف المؤرخين ومنهم البكري.

ورغم الاختلاف حول تاريخ التأسيس، تبقى سجلماسة ثاني مدينة إسلامية تشيد بالغرب الاسلامي بعد مدينة القيروان، وهي عاصمة أول دولة في المغرب الكبير مستقلة عن الخلافة بالمشرق، وهي إمارة بني مدرار الخارجية الصفرية (خوارج مكناسة الصفرية). ويرتبط مجيء الخوارج إلى المغرب بالنزاعات الاستقلالية التي تسببت فيها الخلافة الاسلامية بالمشرق، حيث بالغت في الاضطهاد وسوء المعاملة مما دفع ببعض العناصر التي تعرضت للاضطهاد للخروج إلى مناطق بعيدة عن العباسيين والأمويين، ومنهم الخوارج الذين أسسوا سجلماسة، التي ظلت تحت حكمهم إلى أن سقطت منهم في يد الخلافة الفاطمية. إلا أن سكان سجلماسة لم يستسلموا للدخيل الفاطمي، فقد قاموا بثورة ضده، منهيا بذلك فترة حكم الفاطميين القصيرة، وأعادت المدراريين إلى حكم المدينة من جديد، لكن هذا الوضع لم يدم طويلا حيث عاد الفاطميون من جديد وسيطروا على المدينة بالقوة لتظل تحت سيادتهم، إلا أن انشغال الفاطميون بحلم تأسيس خلافة كبيرة تسع العالم الاسلامي جعلهم يرحلون عن المدينة، لتظهر الصراعات من جديد بين بني زيري والزناتيين، وانتهى الصراع للزناتيين، وبذلك خضعت سجلماسة

لحكمهم، إلا أن تعاملهم مع السكان اتسم بالقساوة، الأمر الذي أغضب السكان المحليين، فقرروا الاتصال بعبدالله بن ياسين لتخليصهم من الظلم الواقع عليهم. لقيت دعوتهم ترحيبا من طرف الشيخ ابن ياسين وأتباعه الذين قرروا دخول سجلماسة، إلا أن هذا الترحيب كان مقرونا بمحاولة الدعوة المرابطية منذ البداية التحكم بأهم المراكز التجارية حتى تتمكن من قوة مادية ثابتة تستطيع بواسطتها تحمل نفقات تحركاتها العسكرية لتوحيد الغرب الاسلامي، ومنذ استيلائهم على سجلماسة عم السلم وازدهرت الحياة الاقتصادية، وربما يرجع ذلك لحسن معاملة ولاة المرابطين لسكانها. وبفضل ازدهارها الاقتصادي وضعها الموحدون ضمن مخططاتهم التوسعية، واتبعوا نفس السياسة المرابطية في احتلالها باعتبارها مفتاح التحكم في طرق التجارة الصحراوية، وهكذا سقطت سجلماسة كغيرها من الأملاك المرابطية لتدخل في حوزة الموحدين، وظلت تحت سيطرتهم حقبة من الزمن، قبل أن تدخل تحت حكم الدولة المرينية، لتندثر حوالي 1393 م أي مع نهاية الدولة المرينية، ومنذ ذلك الوقت غابت عن الساحة التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، رغم المكانة المتميزة التي كانت تتمتع بها داخل المجال الافريقي.

تردد كثيرا اسم مدينة سجلماسة في المصادر التاريخية، وهي أكثر المدن المغربية المندثرة شهرة على الرغم من اختفاء أغلب معالمها وشواهدها التاريخية. يحكي التاريخ الكثير عن هذه المدينة وعن الأحداث التي مرت بها وعن المكانة المتميزة التي تحتلها.

6. المكون البشري.

لقد شكلت مدينة سجلماسة بموقعها الاستراتيجي ومؤهلاتها الطبيعية، مركز استقطاب حيوي لساكنة متنوعة، وبهذا تميزت الساكنة بالتنوع والتعدد، إلا أن المصادر العربية المعاصرة لم تقدم رقما محددا ومضبوطا لهؤلاء السكان، وهذا ما وضحه **حافظي علوي** بقوله إن "**المؤلفين القدامى والمحدثين يبالغون كثيرا في تقدير عدد سكان هذه البلاد... كما أن كتب التراجم والمناقب ورحلات الحجيج المغربي لا تشير قط لا إلى عدد السكان ولا حتى العناصر المكونة للمجتمع**"(حافظي، 1997، 395)، وهو ما دفع بالباحث نفسه إلى القيام بمحاولة جرد الأجناس المكونة للمدينة، وذكر منها سبع مجموعات رئيسية، يمكن توضيحها على الشكل التالي:

أ- **الأمازيغ:** وهم السكان الأصليون بالمنطقة، وكانوا يتكونون في العصر الوسيط من ثلاثة عناصر، هي:

- العنصر الزناتي: يشمل قبائل مكناسة.
- العنصر الثاني: قبائل صنهاجة التي استقرت بشكل مكتف في عهد المرابطين (1054 م).

- العنصر المصمودي: استقرت بالمنطقة مع سيطرة الموحدين (1139- 1145 م).

ب-**الأفارقة**: يرجع أصلهم إلى إفريقيا السوداء، استقروا بالمنطقة منذ القدم وخاصة في العصر الوسيط عندما كانوا يستوردون كعبيد مقابل الملح أو منتوجات فلاحية.

ت-**اليهود**: لعب هذا العنصر دورا مهما في المنطقة وخاصة في ميداني التجارة والصناعة التقليدية.

ث- **العرب**: يرجع استقرارهم بالمنطقة إلى عهد الفتوحات الإسلامية خلال النصف الثاني من القرن 7 م.

ج- **الأندلسيون**: استقروا بالمنطقة منذ تشييدها.

ح- **الشرفاء**: هم من سلالة الحسن الداخل جد الأسرة العلوية، وصل إلى المنطقة سنة 1265 م وخلف بها ذريته.

خ- **الحراثين**: هم فئة ملونة تميل بشرتها نحو السواد أصلها غير معروف بدقة... وربما تكون بقايا الأجناس البشرية الإفريقية القديمة، وهي فئة معروفة بالمنطقة تتعاطى للحرث، ومن هنا اشتق اسمها(تاوشيخت، 1993، 12).

فقد باتت سجلماسة بفضل موقعها الاستراتيجي نقطة التقاء بشرية، إذ توافدت عليها موجات بشرية كثيرة وخاصة من جنوب إفريقيا والمشرق، ويرتبط هذا الاستقرار بمكانة سجلماسة الاقتصادية، كما يكشف لنا عن أهمية التسامح الذي ميز الشخصية المغربية على مر التاريخ، حيث كان يتم قبول الاخر والتعايش معه مما يسهم بدون شك في تنوع ثقافي ناتج عن الاحتكاك والتلاقح بين تركيبة بشرية مختلفة الألسن والأعراق استطاعت التأقلم والتواصل فيما بينها، بل وتمازجت بالمنطقة جميع المعتقدات الخارجية منها: السنية والشيعية، والصوفية... وبهذا تكون المدينة قد تفتحت على جميع التيارات الفكرية والمذهبية وتعايشت في سلم، وهو ما يظهر لنا أن التسامح والتواصل مع الآخر وحرية الاعتقاد عوامل مهمة في التنوع الثقافي والحضاري.

7. أسباب اختيار المكان وحركيته:

ارتبط تاريخ سجلماسة بظروف اقتصادية وسياسية وثقافية، وكل هذا جعل منها منطقة متميزة في ربط الاتصال بين المغرب والعديد من البلدان. ونظرا لأهميتها الاستراتيجية تهافتت عليها العديد من الدول لأسباب عدة، ومنها:

1.7: الأسباب الاقتصادية:

إن اختيار هذا المكان لبناء سجلماسة تبرره حاجة سكانها إلى الحماية اللازمة لتفادي غمر فيضانات وادي زيز، وفسح المجال لممارسة النشاط الزراعي في الأراضي السهلية المجاورة(حافظي، 1997،

85)، بالإضافة إلى الامكانيات الهائلة التي توفرها هذه المنطقة من الموارد الطبيعية كالماء والمراعي، ومن المنتجات الفلاحية، والموارد الأولية(تاوشيخت، 2008، 88)، وفي هذا السياق يشيد **محمود إسماعيل** بمؤهلات هذه المنطقة إذ قال " **لقد قامت دولتي الخوارج في مناطق صحراوية، ومع ذلك واكب قيامها ازدهارا في الزراعة والصناعة ورواجا في التجارة. ففي مجال الزراعة، استفاد بنو مدرار من مياه نهر ملوية في تحويل البقعة التي أقاموا فيها عاصمتهم إلى سهل فيضي، صيروا فيها الخلجان وشقوا القنوات لتوصيل المياه إلى مساحة واسعة، قسموها إلى حياض تشبه حياض البساتين، ومهدوها للزراعة، واستكثروا من الغرس فزرعوا أشجار النخيل والأعشاب على مساحة بلغت أربعين ميلا، فاشتهرت سجلماسة لذلك بوفرة كرومها وفاكهتها، واشتهرت إلى جانب ذلك بالحنطة والشعير والقطن والكمون الكراوية وغيرها...**"(محمود اسماعيل، 1976، 274). علاوة على ما ذكره الوزان والبكري وغيرهما، وهذا دليل على أن منطقة سجلماسة لم تكن منطقة شبه صحراوية لأنها كانت منطقة خصبة جدا شأنها شأن كل المناطق الموجودة شمال وادي درعة(ناعمي، 1988، 24).

اشتهرت سجلماسة أيضا بمناجمها الغنية بالنحاس والفضة، كما أنها كانت تتحكم في تجارة الذهب السوداني وفي مناجم درعة وتدغة(تاوشيخت، 2008، 125)، وأصبحت تمثل محطة تجارية أساسية تربط بين جهات مختلفة، فهي بمثابة نقطة التواصل بين نوعين من المسالك والتقارب بين ثلاثة مجالات، وهي: مدن وموانئ شمال المغرب الأقصى، مدن وموانئ المغرب الأوسط وإفريقية، ومدن ومراكز التجارة الصحراوية والسودانية(تاوشيخت، 2008، 137).

كان الموقع يربط بين مختلف أجزاء الغرب الإسلامي، وهذا ما جعله منفذا رئيسا من منافذ المغرب على الصحراء، إذ منها كانت تنطلق القوافل التجارية نحو مناطق جنوب الصحراء، ومنها أيضا تتم عملية توزيع البضائع السودانية على جميع جهات المغرب(تاوشيخت، 2008، 133). إذن فالموقع الاستراتيجي لسجلماسة ودورها المحوري في تجارة القوافل كان وراء ازدهارها، الشيء الذي جعلها محط أطماع الدول الكبرى.

2ـ7 : الأسباب السياسية:

تتمثل الأسباب السياسية في إقبال سكان المنطقة على اعتناق الدعوة الإسلامية، وخاصة في صيغتها الخارجية الصفرية، التي تتوافق مع ميولاتهم، مما ساعد هذه الحركة في كسب التأييد الشعبي والقوة البشرية اللازمة، وكذلك بعد المنطقة عن الحكم المركزي للعباسيين والأغالبة وعن الصراعات السياسية والمذهبية وعن الغزوات العسكرية(تاوشيخت، 2008، 33).

اعتمادا على ما سبق ذكره، يمكن القول إن سجلماسة أسست في ظروف سياسية خاصة بغية توفير الأمن للسكان وتحقيق مشروع سياسي، فهي مدينة بنيت من طرف خوارج مكناسة الصفرية عشية فشل

ثوراتهم ضد الخلافة الإسلامية بالمشرق، وفي منطقة كانت في منأى عن كل تدخل أجنبي(تاوشيخت، 2008، 164). فقد كانت الاستراتيجية السياسية لمكناسة تهدف إلى تحقيق نواة دولة خوارجية يمكن بواسطتها التوسع تدريجيا قصد السيطرة على أكبر جزء ممكن من العالم الإسلامي كخطوة أساسية للوصول في النهاية إلى سدة الخلافة الإسلامية. إذن فتأسيس سجلماسة كان نتيجة الاضطهاد الذي طال المذهب الصفري في المشرق، وكذا عسف الولاة على البربر بالمغرب، فأدى هذا العسف إلى تقبل بعض فئات البربر المذهب الخارجي بعد دخوله إلى المغرب(السهلي، 1988، 20). ومنذ ذلك الوقت بدأت بوادر تأسيس سجلماسة تظهر على الوجود.

3.7:الأسباب الثقافية.

استقطبت سجلماسة العديد من العلماء ورجال الدين والأدب فضلا عن التجار وأصحاب الأموال، فكانت فعلا إحدى الركائز الأساسية في بناء الحضارة المغربية.

تتميز سجلماسة بتنوع علاقتها مع المشرق العربي ومع المراكز الحضرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، كما ظلت صلاتها بالممالك الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء متميزة ووثيقة بشكل أكبر، وزيادة على ذلك، فهناك الكثير من العادات الإسلامية التي ترسخت في المجتمع السوداني نتيجة احتكاكهم بسكان مناطق شمال إفريقيا وخصوصا سجلماسة.

8. عوامل اندراس مدينة سجلماسة:

بدأت مدينة سجلماسة في التدهور منذ فترة حكم أبي الحسن المريني خلال منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، قبل أن تندثر نهائيا في عهد أبي العباس مع نهاية هذا القرن (حوالي 795-802هـ/1393- 1400/)(تاوشيخت، 2008، 414).

عانت سجلماسة من الثورات والتمردات بين حكامها، وبين هؤلاء وسلاطين بني مرين، ويشير الوزان إلى أن المرينيين عهدوا بحكم إقليم سجلماسة إلى أقرب الناس إليهم وخاصة أبناءهم، وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد ملك فاس، وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم، بعضها حر والبعض الآخر خاضع للأعراب(الوزان، د.ت، 121). فبالإضافة إلى ثورة الأهالي هذه، يشير محمود إسماعيل إلى أن العامل المذهبي كان وراء الإندراس، ويظهر ذلك بوضوح في نشاط الإباضية بسجلماسة، فالحروب الطويلة التي خاضها أحدثت أضرارا بسجلماسة وتخريب بعمائرها وسورها، وقد ساهم تباين الكيان الاجتماعي في سجلماسة واختلاف عناصر سكانها من بربر وأندلسيين وسودان... في تسريع وتيرة الاندثار (محمود اسماعيل، 1976، 123).

تعرضت المدينة أيضا عام 673 هـ/ 1274 م للحصار على يد السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق، فضاق أهلها من شدة الحصار والقتال(تاوشيخت، 2008، 417)، ويوضح صاحب الاستقصا

ذلك قائلا "**أن أهل سجلماسة اختلفوا مع السلطان الأكحل فحاصرها واشتغل بتغوير ماء العين التي تسقى منها، فكان ذلك سببا في خلائها**"(الناصري، 1954، 120). ويضيف عبد المجيد قدوري أن دمار سجلماسة جاء على يد تغوير مائها، محدثات القرى التي تسمى اليوم الرتب لأنها قطعت عنها ماء عنصرها المعروف بعين أجلف(القدوري، د.ت، 22). ولهذا اعتبر مونيي Jacques Meunier مشكل الماء من أهم الأسباب التي أدت بمدينة سجلماسة إلى الانهيار، بسبب غور العيون في مجالاتها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وارتفاع مستوى سطح الأرض بها عن مستوى جريان الماء في وادي زي(Meunier, 1982, 296). يضاف إلى ذلك أن سجلماسة لم تكن معزولة عما كان المغرب الأقصى يعانيه من ضعف في المجال السياسي ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. فقد شجع ضعف السلطة المركزية بفاس القبائل على السيادة بمجالاتها، وكان لذلك أثر كبير في ضعف النشاط الاقتصادي، وانعدام الأمن في الطرقات، وقل الانتاج الفلاحي وتضرر قطاع التجارة والحرف في مدن عديدة لأنها أصبحت معزولة عن باديتها(حافظي، 1997، 441).

بالإضافة إلى هذه العوامل، هناك عوامل أخرى غير مباشرة ساهمت هي الأخرى في الاندراس، ومنها:

العامل الأول: يتمثل في هيمنة القبائل العربية وما سببته من قلاقل، مما أثر بشكل سلبي على الحياة الاقتصادية للمدينة، فضعفت المحاصيل الزراعية وتوقف سك العملة وتحولت مسالك تجار القوافل إلى جهة أخرى(تاوشيخت، 2008، 417).

العامل الثاني: يتعلق بتحول مسالك التجارة الصحراوية نحو موانئ المحيط الأطلسي مع ظهور البرتغاليين بهذه الشواطئ، وهذا التحول حال دون استفادة المدينة من موارد رئيسية(تاوشيخت، 2008، 417)، بل انطفأ إشراقها مع ظهور الملاحة البحرية في أواخر القرن 14 م مع النهضة الأوربية حيث تم اختراع الكرافيلا والبوصلة كآليات لركوب البحر، وقد ساهم هذا التحول في ترجيح أهمية الطرق البحرية على حساب الطرق البرية، الشيء الذي انعكس سلبا على وضعية العالم الإسلامي الذي كان يعتمد على الطرق البرية في إطار تجارته، وهذا الاهتمام بالطرق البرية يوضحه الأستاذ مولاي هاشم العلوي القاسمي بقوله "**في القرن 3 و4 هـ (9-10 م) اتجه العالم الإسلامي نحو الطرق البرية وصارت الطرق البحرية مكملة لها فقط...وانشغلت القوات السياسية في الغرب الاسلامي بالصراع على هذه الطرق وتحولت المراكز الشمالية من الصحراء الكبرى إلى مكان للتنافس بين القوات المتصارعة عليها، فصارت غدامس، وركلة، تاهرت، سجلماسة، نول-لمطة وأودغشت مسرحا للتنافس الساخن بين جميع القوات المغربية**"(القاسمي، 1995، 376).

العامل الثالث: يرتبط بالظروف المناخية القاسية من الجفاف والأوبئة(القاسمي، 1995، 376).

إن الحديث عن اختفاء مدينة سجلماسة يكتسي أهمية بالغة، وذلك راجع لأهميتها الاقتصادية والسياسية في تاريخ المغرب، وتتجلى هذه الأهمية في حضورها القوي بأذهان الساكنة، وفي هذا السياق نقل لنا تاوشيخت لحسن أسطورتين مختلفتين عن اندثار سجلماسة. تقول الأسطورة الأولى أن السلطان الأكحل "الأسود" ويقصد به ربما حاكم المدينة، ذهب يتجول في إحدى الليالي فالتقى امرأة خرجت رفقة أبنائها قصد غسل بعض الملابس، فطلب منها السلطان أن تربط معه علاقة غير شرعية، فلما رفضت قام بتصفية ابنا لها، هذا الفعل الشنيع لم يستسغه السجلماسيون فنددوا به وقاموا بالثورة أدت إلى نشوب الحرب التي قتل على إثرها الحاكم، وكان من نتائجها تدمير المدينة.

الأسطورة الثانية تشير إلى أن سكان المدينة استيقظوا فجر ذات يوم على مؤذن المسجد الجامع وهو يصيح بعد أذان الصبح "أصبح ولله خلت" بدلا من "أصبح ولله الحمد"، وتعرضت المدينة في ليلة هذا اليوم لكارثة طبيعية تتمثل على الأرجح في زلزال قوي أو في فيضان جارف(القاسمي، 1995، 420). ونختم هذا الفصل بقول الوزان باعتباره شاهد عيان، إذ زار المنطقة واستقر بها عشرة أيام، وقال "**سجلماسة الآن خربة تماما**"(الوزان، د.ت، 128).

تضافرت عدة عوامل لاندراس سجلماسة واختفائها، فرغم تفاوت حدة كل عامل، فإن العامل البيئي-الإيكولوجي- كان أعنف وأقوى، فنضوب المياه التي كانت تشكل المصدر الرئيس للحياة، إلى جانب هبوب الرياح الجنوبية الشرقية المعروفة بشدة حرارتها، وما تحمله من كثبان رملية تغمر المحاصيل، كل هذا أدى إلى استحالة استمرار العيش بالمدينة. أما الجانب السياسي فأظن أن موقع الإقليم كان يؤهله لأن يكون عرضة للعديد من هجومات قبائل الرحل عبر التاريخ، إضافة إلى انحراف الطرق التجارية التقليدية.

يبقى ما قيل في موضوع اندراس سجلماسة مجرد افتراضات تحتاج إلى المزيد من البحث والتقصي، وهذا ما يستدعي استحضار تنقيبات أثرية لفك شفرة من شفرات تاريخ المدينة.

9. الحفريات الأثرية في اندراس مدينة سجلماسة:

تعود الأبحاث الأولى بمنطقة سجلماسة إلى سنة 1925 م قام بها الكولونيل بلوان، تلتها تحريات رولمان، ثم أبحاث جاك مونيي، وشارل آلان، بالإضافة إلى أبحاث كل من كامو وماركات(الوزان، د.ت، 128). وبعدها عرفت المنطقة عدة تنقيبات، وهي على الشكل التالي:

- **1970**: تحريات مصلحة الآثار القديمة بالرباط، حيث قامت بإنجاز حفريات على شكل أسبار، لكن لم يتبعها تقرير عن الحصيلة.

- **1970:** تنقيبات بعثة من معهد بريسكوت Prescott Collège لكنها لم تقدم أية نتيجة.
- **1971- 1972:** حفريات إيطالية، همت المركز الأوسط والمنطقة الشمالية للموقع.
- **من 29 ماي إلى 3 يوليوز 1971:** تنقيبات مغربية-إيطالية، استعملت فيها تقنيات متطورة في البحث (المسح المغناطسي والكهربائي).
- **من 28 مارس إلى 7 ماي 1972:** حفريات بالمنطقة الشمالية بالمنطقة الشمالية لموقع سجلماسة.
- **يوليوز- غشت 1974:** حفريات مغربية.
- **1984:** تحريات مختبر الخزفيات ليون الفرنسية.
- **1990:** تنقيبات أشرف عليها الدكتور لحسن تاوشيخت، همت السور الغربي لمدينة سجلماسة، وتم جمع معطيات جديدة حول الصناعة الخزفية.
- **1988-1998:** الحفريات الأمريكية، ومن خلالها تم كشف النقاب عن مجموعة من المكونات المعمارية والقطع الخزفية(تاوشيخت، 2008، 198).

أسفرت هذه الحفريات عن مجموعة من المعطيات، ومنها:

- اكتشاف شبكة من القنوات المائية، نباتات مفحمة، سد تلي صغير وقنطرة، حديقة من الطراز الأندلسي، نافورة جميلة، عظام بشرية وزجاج، حلي ولقى خزفية من الزليج والفسيفساء.
- الكشف عن الجزء الغربي لأحد أسوار سجلماسة من حيث تكويناته، وشكله واتجاهه.
- اكتشاف بقايا الصناعة الخزفية (الفحم، الرماد، قطع من النحاس المكلس، الأواني غير المكتملة للصنع، الآجر المحروق وفواصل الآنية داخل الفرن).
- اكتشاف الحمام العمومي وكذا حوض وقناة مائية (أجزاء من الناعورة).
- اكتشاف معامل صناعية وعدة أرباض بشمال وجنوب سجلماسة.
- اكتشاف المسجد الجامع، والذي يعتبر من المعالم العمرانية التي تحظى دائما بعناية الحاكمين والمحكومين(تاوشيخت، 2008، 198- 287).
- اكتشاف سكة العملة (النقود الفضية والذهبية والنحاسية) وكلها كانت تحمل اسم حاكم المدينة.
- صناعة الخزف مركزة بضواحي مدينة سجلماسة على بعد 6 كلم غرب وشرق المدينة(تاوشيخت، 1993، 19- 20).
- كانت سجلماسة مركزا مهما في صناعة الفخار(توري، 1988، 39).

أكدت بعض الأبحاث الأركيولوجية والجيولوجية استنادا إلى ما ذكره البكري على أن سجلماسة كانت تحيط بها مياه وادي زيز من كل النواحي، وأن المدينة كانت في الحقيقة مبنية فوق موقع يتكون من صخور ترجع إلى العصر الجيولوجي الأول، وأن هذا الموقع كان يشرف على واحة كانت تغمرها مياه

السيول ومياه وادي زيز، وأن التدني الحالي لموقع سجلماسة يرجع إلى الترسبات التي تركتها السيول في الواحة خلال تعاقب مختلف العصور التاريخية ويصل سمك طبقتها في بعض الأحيان إلى 30 مترا (مزين، 1984، 10).

إذا كانت الأبحاث الأثرية قد توصلت إلى تحديد موقع سجلماسة، لكن معطياتها حول الجوانب المعمارية لهذه المدينة، لا زلت لحد الآن ضئيلة ويرجع ذلك إلى أسباب متعددة يتجلى أهمها في كون موقع سجلماسة عرف عدة تغييرات بنائية خلال مختلف العصور وحتى بعد تخريب المدينة.

10. خاتمة.

من خلال إثارة بعض الاشكاليات المرتبطة بتأسيس المدينة يجدر بنا التذكير بأهم الخلاصات التي وقفنا عندها. من الناحية التاريخية، اتضح أن المدينة تناوب على حكمها عدة دول، وهو ما ساهم بدون شك في غموض العديد من القضايا المرتبطة بالمدينة، ومنها سنة التأسيس حيث لا يوجد نص صريح يحدد بشكل دقيق تاريخ التأسيس، مما يستدعي مزيدا من البحث والتنقيب والاستعانة بالعلوم التاريخية الأخرى، مثل علم الآثار الذي أبان عن نتائج مهمة عند دراسته لمثل هذه المعالم.

ارتبطت سجلماسة بالتجارة البعيد المدى مع كل من السودان وفاس ومراكش وأروبا، ولعبت دورا مهما لفترة طويلة في تلك الوساطة التجارية واستفادت منها.

من حيث الجوانب المعمارية، لاحظنا من خلال بعض الاشارات الواردة في بعض التنقيبات الأثرية غنى وتنوع المدينة.

وفضلا عن الأهمية التاريخية والتجارية والمعمارية لهذه المدينة، لا بد من إثارة الانتباه إلى رد الاعتبار لها والتعرف عليها في أوساط البحث، ليس فقط كمبنى وتراث معماري، بل كمركز ثقافي واقتصادي متميز، وخاصة إذا علمنا أن التنمية المستدامة ترتبط بصيانة التراث الثقافي، وجعله في خدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي أصبح من الضروري التفكير في تعميق البحث والتنقيب في هذا المجال لصيانة الذاكرة التاريخية ومن ثمة صيانة الذاكرة الوطنية.

11. قائمة المصادر والمراجع:

1. المؤلفات:

2. ابن الخطيب، لسان الدين محمد السلماني، (2003)، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، القاهرة، منشورات مكتبة الثقافة الدينية.
3. ابن سعيد، أبو الحسن علي المغربي، (1970)، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، بيروت.

4. البكري، أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، (2003)، المسالك والممالك، الجزء الثاني، تحقيق جمال طلبة، لبنان، دار الكتب العلمية.
5. المنصوري، أحمد، (2004)، كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر، تحقيق محمد بن لحسن، الطبعة الأولى، المغرب، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.
6. الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، (1954)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدارالبيضاء، دار الكتاب.
7. الحموي، ياقوت بن عبد الله، (د.ت)، معجم البلدان، المجلد الثالث، بيروت، دار صادر.
8. الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، (د.ت)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الاسلامي.
9. تاوشيخت، لحسن، (2008)، عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.
10. حافظي، علوي حسن، (1997)، سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، المغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.
11. محمود إسماعيل، عبد الرزاق، (1976)، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، الطبعة الأولى، المغرب، منشورات دار الثقافة.
12. مجموعة من المؤلفين، (د.ت)، دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الأولى، القاهرة.
13. القاسمي، مولاي هاشم العلوي، (1995)، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4 هـ/ منتصف القرن 11 م، المغرب، مطبعة فضالة بالمحمدية.
14. قدوري، عبد المجيد، (د.ت)، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ.
15. Meunier, Jacques, (1982), Le Maroc saharien des origines a 1630 avec cinquante-cinq, Document photographiques inédites de l'auteur, Kline Ciskei.

a. المقالات:

16. السهلي، العربي، (23- 27 مارس 1988)، المدراريون في سجلماسة، ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا، المغرب.

17. تاوشيخت، لحسن، (1993)، واحة تافيلالت بين الأمس واليوم، مجلة المجال والمجتمع بالواحات المغربية، سلسلة الندوات رقم 6، صص، 7-33.
18. توري، عبد العزيز، (23- 27 مارس 1988)، سجلماسة بين الطموح والممكن، ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا، المغرب.
19. مزين، العربي، (1984)، سجلماسة، مذكرات من التراث المغربي، المجلد الثاني، صص، 25-37.
20. مزين، العربي، (23- 27 مارس 1988)، سجلماسة الاسم، ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا، المغرب.
21. ناعمي، مصطفى، (23- 27 مارس 1988)، سجلماسة ونول لمطة من خلال الوثائق التاريخية والحفريات، ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا، المغرب.